الفصل العاشر

اليهود في فلسطين في العصر الإسلامي

فلسطين العربية الإسلامية :

كان اسم فلسطين لا يطلق على القطر المعروف بهذا الاسم الآن بل كان قاصرًا على شعب قديم ولم يطلق على هذا القطر إلا قبل نصف قـرن إذا كان القطر المعروف الآن بهذا الاسم يؤلف قـسمًا مـن الإمبراطوريـة العثمانية التي قسمت الوطن العربي إلى ولايات ومتصرفيات دون أن يكون بينها اسم ولاية فلسطين بل كان هناك متصرفية القدس وهي تابعة لولايـة دمشق، فلما وقعت الحرب العالمية الأولي وتقرر في نهايتها وضع الأقطار العربية تحت الانتداب البريطاني واستولت بريطانيا على القسم الجنوبي من سوريا وأطلقت على نصفه الغربي اسم فلسطين وعلى نصفه الشرقي اسـم شرق الأردن.

أما معنى كلمة فلسطين فإنها محرفة من اسم شعب كان يقيم في تلك البقعة قبل أربعة آلاف سنة وأن هذه القبائل كانت تغزو سـوريا والعـراق ومصر وتستقر فيها وأن معظم الشعوب والدول التي ظهرت في الأقطـار المذكورة كانت نتيجة هذه الغزوات العربيـة وأن الكنعـانيين والفينيقيـين والبابليين والكلدانيين والحيثيين والأراميين والهكسوس وغيرهم كانوا جميعًا من القبائل العربية العاربة أو التي استقرت مع مرور الزمن ولا شك أيـضًا في أن مما عدا تدمر وغسان ولخم والأنباط ومؤاب وأدوم وغيرها كانـت الأخرى عربية.

وكان شعب فلسطين يقيم في جنوب البلاد وكانت له مدينة وحضارة امتدت حتى كريت وليبيا وآسيا الصغرى واليونان وقبل أن تقوم سفن الفينيقيين يجوب البحار كانت سفن الفلسطينيين تمخر عباب البحار إلى المناطق الواقعة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وكانت أشهر مدن الفلسطينيين يافا وغزة ومجدل وعسقلان وبيت داجون وبيت جبرين وغيرها وكان هذا الشعب يعبد الإله داجون وقد رسموه على شكل سمكة كبيرة مما يدل على أن هذا الشعب كان يميل إلى أعمال البحر وكان هذا الشعب يعيش عيشة القبائل العربية ولكل قبيلة ملك وكانت أسماء هؤلاء الملوك تدل دلالة واضحة على أنهم عرب.

وقبل أن يأتي الفلسطينيون ويستقرون في الرقعة الجنوبية من أرض فلسطين كانت هناك قبائل عربية أخرى قد استقرت في البلاد وأقامت فيها ، ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء إلى بير سبع والخليل. والبابوسيون الذين كانوا يستوطنون القدس وما حولها والكنعانيون الذين كانوا يستولون على جبال السامرة والكرمل إلى لبنان ، كما كانت هناك قبائل أخرى مستقرة في البلاد.

ومن العسير الفصل بين تاريخ فلسطين ، وتاريخ سوريا ، وتاريخ مصر عبر القرون الطويلة إلا في بعض الأزمنة والعصور القصيرة التي خضعت فيها أقسام من سوريا بالغزوات جاءت عليها أحيانا من بابل أو مقدونيا، أو روما أو فارس ، وكثيرًا ما اشتركت سوريا كلها في الدفاع عن وحدتها أمام غزوات الفاتحين ومطامع الطامعين " وكثيرًا ما خاض أبناء سوريا المعارك جنبًا إلى جنب مع إخوانهم سكان الجنوب في رد العدوان الأجنبي.

وهكذا رأينا فلسطين قطرًا عربيًا أصيلاً ، لا تشوب عروبته شـــائبة ما تضعف من شأنها فيه ، حيث كان مهجرًا من مهاجر الموجات العربيـــة قبل الإسلام ، ثم خلدت عروبته بالموجة الإسلامية الكبرى التي جرت بينها وبين الرومان فيه معارك طاحنة أستشهد فيها الألوف من مجاهـــدي الفـــتح الأول ، ودفن في تربته فيمن دفن أبو عبيدة القائد العـــام لجيـــوش الفـــتح الإسلامي وشرحبيل وعكرمة وغيرهما من كبار القواد والصحابة، وخلـــدت صلة قدسية بالإسلام في القرآن وبما كان من الإسراء النبوي إليه.

رحب سكان الشام العرب بالجيوش العربية الإسلامية ، فقد كـــانوا على استعداد للاستظلال بظل الراية العربية التي وحدت بينهم دون أن ترغم أحدا منهم على اعتناق الدين الإسلامي ، وكان معظم هؤلاء السكان العرب الذين حررتهم الراية العربية من الاستعمار الروماني ، فأصبح الجميع شعبًا واحدًا ، وانخرط رجال الشام في الجيوش العربية التي نشرت راياتها فـــي المشرق والمغرب فكان معظم أفراد هذه الجيوش وقوادها من سوريا.

أصبحت أرض فلسطين تابعة للدولة الأموية دون أن تكـــون هنـــاك حدود بينهما ، وكان الخلفاء الأمويون يملكون الضياع والقـــصور فيهـــا ، ويقضون فصل الشتاء في مناطقها الدافئة ، فكان عبد الملك بن مروان يقيم أحيانا في مدينة الرملة البيضاء وكان هشام بن عبد الملك يقيم فـــي أريحـــا والمعروف أن الخلفاء الأمويين هم الذين أقاموا المسجد الأقصى ، وبنوا فيه قبة الصخرة ، وأنشأوا المدن والقصور وعَمّروا القرى والدساكر.

ظلت فلسطين تشارك أمها سوريا الحوادث والتطورات ، في أيـــام العباسيين ثم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، دون أن يحاول أحد مـــن الفاتحين التفريق بينهما أو شطرهما ، أو إيجاد حدود أو أسماء لكل منطقـــة

من مناطق سوريا ، بل على العكس كان المعروف أنها جميعًا تؤلف قطـرًا واحدًا أطلق عليه اسم بر الشام.

أصبح لفلسطين دور عظيم في سجل تاريخ النـزاع بـين الـشرق والغرب استمر مائتي عام ، ودفن في تربته كذلك عشرات ألوف الـشهداء من العرب المسلمين ، وانتهى بدحر الغرب عنه وتخليـد صـفته العربيـة الإسلامية ومدته القبائل العربية بعد ذلك بموجاتها في خلدت أسماءها، فـي مختلف بقاعه ، مثل ديار بني حسن وبني مرة وغسانة والحوارث والحارثية وبني عامر وغيرها ، فضلاً عن الموجات التي مازالـت تحـتفظ بـصفتها وطابعها القبلي البدوي والمتوطنة في أنحاء عديدة منه في الجنوب والشرق والشمال ، وكان رجال فلسطين وشبابها في إبان انبثاق الحركـة العربيـة الحديثة في طليعة الصفوف ، وكانوا من الأركان التي قامت عليهـا هـذه الحركة في مختلف مظاهرها وأدوارها[٢٧٢].

ظل الحال على هذا المنوال حتي بدأ الانتداب البريطاني ، فوضـع الحدود بين فلسطين وجاراتها العربية ، لتنفيذ سياسـة مرسـومة وخطـة موضوعة ، كانت نتائجها تشريد الشعب الفلسطيني من وطنه وإنشاء الدولة الصهيونية في قسم من فلسطين.

فلسطين جزء من الوطن العربي : فلسطين جزء من الوطن العربي ، إذ نزل بها العرب منذ آلاف السنين وأقاموا فيهـا ، وظلـوا حتـي اليـوم يحتفظون بصلات الدم والقرابة التي تربطهم بإخوانهم الذين يعيشون في بقية البلاد العربية.

---

[٢٧٢]) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ٣ ص ٢٠.

وتقع فلسطين في الطرف الجنوبي الغربـــي مـــن منطقـــة الهـــلال الخصيب وفيها تتمثل جميع الظاهرات الطبيعية والبشرية التي نصادفها في البلاد العربية المجاورة ، وبصفة خاصة لبنان وسورية ، والمملكة الأردنية ومصر ، فالسهول الساحلية التي تمتد في غرب فلسطين ، وتشرف على مياه البحر الأبيض المتوسط ليست إلا امتدادا طبيعيًا للسهول الساحلية في لبنـــان وشبه جزيرة سيناء ، وهي وإياها تتشابه في كل الصفات ، فهـــي ســـواحل ضيقة ذات سطح منخفض وتربة خصبة ،وأمطارها شـــتوية غيـــر كثيـــرة والمنطقة الأخدودية المنخفضة التي تمتد في شرق فلسطين ، ويجري نهـــر الأردن في بعض أجزائها ، ويشغل البحر الميت بعضها الأخر ، تشبه مـــن جميع الوجوه وادي البقاع الذي يمتد في لبنان ، بل إنهاء جزء مكمل لهـــذا الوادي ، لها نفس الخصائص التي تميزه والظاهرات التي يتصف بها.

والأرض الجبلية التي تفصل المنطقة الأخدودية في الـــشرق عـــن السهول الساحلية في الغرب ، وهي التي تسمى هضبة الخليل ، تعتبر امتدادا طبيعيًا لشبه جزيرة سيناء وصحراء النقب ، ولا تختلف عنهما في شـــيء ، إلا أنها أكثر ارتفاعًا وأغزر أمطارًا لهذا كانت رغم فقرها أوفر حظًا فـــي الحياة النباتية والحيوانية ، وأكثر تقدمًا في مظاهر النشاط البشري.

والظروف المناخية السائدة في فلسطين هي بعينها الظـــروف التـــي تخضع لها بقية البلاد العربية وهي خليط من الخصائص التي يتميز بها مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي ، وفيما تتمثـــل الظـــاهرات المناخيـــة المختلفة التي يتميز بها هذان الإقليمان.

والعناصر الجنسية التي تعيش في فلسطين هي بعينها العناصر التي تقيم في بقية البلاد العربية ، وهم يتألفون من أكثرية عربية وأقلية يهودية ،

ولا يختلف نظامهم الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين عنـــه فـــي الـــبلاد العربية الأخرى ، فهم يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان ويعتمدون على قليل من الصناعة والتجارة[٢٧٣].

اليهود وفلسطين قبل القرن الثامن عشر :

لا نجد لكلمة صهيون أصلاً متفقًا عليه في اللغة العبريـــة ، وأكثـــر الشُرَّاح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير في اللغة الحبشية ، وإنها مـــن مادة الصون والتحصين ، وكانت فعلان من حـــصون الروابـــي العاليـــة ، والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين ســـكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين ، وهم الذين أطلقوا على الأرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع توضع بهذا المعنى فـــي لغتنا العربية الحاضرة.

والكلمة تكتب في العبرية تارة بالسين وتارة بالزاي ، ولم يحـــرص عليها اليهود بعد دخولها في حوزتهم بل جاء في سفر صـــمويل الثـــاني أن داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب إليه – بل مال به إلى بيت عربية وكذلك كان شأن صهيون قبل سبي بابل . فلمـــا حمـــل اليهود إلى الأسر أصبح الحنين إلى (صهيون) رمزًا للحنين إلـــى عـــودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الإلهية في كتبهم تحولاً جديدًا مع مصالح السياسة ، فانحصرت في ذرية داود – عليه السلام – ليخرج منها غير ذي الذرية من اليهود.

---

[٢٧٣] الشرق الأوسط للدكاترة عامر ومتولي وعز الدين فريد ص ٤٨.

وليس هذا بالتحويل الأول عندهم في هذه الوعود على حسب المصالح السياسية. فقد كان الوعد لإبراهيم فحولوه إلى إسحاق ليخرجوا منه أبناء إسماعيل وهم العرب ، ثم حولوه إلى ذرية داود لينحصر في مملكة الجنوب دون مملكة الشمال. وهكذا كان وعد صهيون (وعدًا سياسيًا) تابعا لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذي يقام في جوارها فلا شأن له بالعقيدة الدينية التي تشمل جميع سلالة إبراهيم[٢٧٤].

تفرق اليهود في عصر السيد المسيح ، في أنحاء الدولة الرومانية واتخذوا لهم وطنا في كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتب (فليلون) فليسوف الإسكندرية اليهودي يقول في تحديد موقفهم من الدولة : (وأن اليهود – لكثرة عددهم – لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون إلى أورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطنًا لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم من قبلهم).

والكلمة التي عبر بها فيلون عن الحاضرة هي الكلمة اليونانية (متروبوليس) أي أم المدن من كلمة (متري) بمعني أم . و (بوليس) بمعنى مدينة ، وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين.

لم تكن الصهيونية في الزمن القديم عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الأمل في نجاحها السياسي ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافي ، وأطلقت في بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد عن المعاني الجغرافية ، وذاك حيث يقول صاحب الرسالة إلى

---

[٢٧٤]) العقاد : الصهيونية ص ١٢.

العبرانيين من الإنجيل : (إنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار .. بل أتيتم إلى جبل صهيون ، وإلى مدينة الله الحي أورشـــليم الـــسماوية . . وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات وإلى الله ديان الجميع).

وواضح من تعبير هذه الرسالة أن الصهيونية قد تحولت إلى فكرة لا تتعلق بمكان معين ، ولا تتطلب العودة إليها ، واعتبروا هذه الدعوة إنكـــارًا للمسيح المنتظر في عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه في آخر الزمان ، فاتفقتا على شيء واحد وهو الفصل بين الصهيونية والسياسية والفكرة الدينية..

تناثر اليهود في أرجاء المعمورة ، حاملة معها تفكيرها الساذج الذي يزعم أن بني إسرائيل خير الأمم لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض إســـرائيل أحسن البلاد وطن (يهوه) وانتقلت هذه الأفكار من الآباء إلى الأبناء وغدت أمورًا مسلمة لا يستساغ بحثها أو الجدل فيها.

وكان هذا هو الوضع السائد على درجات متفاوتـــة فـــي مختلـــف الأماكن والأزمان.

منذ قضى الرومان على مملكة يهوذا وفقد اليهود اســـتقلالهم حتـــى أصبح اليهود يضرعون إلى ربهم فـــي صـــلواتهم أن يـــردهم إلـــى أرض الميعاد ، وتأصلت هذه الأمنية في قلوبهم ، حتى أصبحت لديهم عقيدة دينية قائمة على ما وعد به رب السماوات والأرض نبيه إبراهيم من أن الأراضي المقدسة ستبقى أبد الآبدين وقفا على ذريته ، فظلوا على إيمانهم الراسخ بأن المسيح سيأتي ذات يوم لينشر السلام على الأرض ويجمع شملهم في أرض أسلافهم ، وكانوا يجدون في هذا الأمل ما يخفف اللوعة ويـــشفي النفـــوس

الحائرة فيذكرونه في صلواتهم اليومية الثلاثة ، مبتهلين إلـــى الله أن يبعـــث صهيون ويعيدهم إلى أورشليم.

وكان هذا الدعاء يتردد في أعيادهم التي تـــذكرهم بأحـــداث العهـــد القديم ، أما صيامهم فيمتد طوال فترات يتخللها الحزن على أيامهم الخـــوالي ومجدهم الضائع ، وأما التلمود الذي يحفظونه عن ظهـــر قلـــب فيـــذكرهم بالأرض الطيبة التي كان يقلها أجدادهم ، والمعبد الذي كان يشهد صـــلواتهم وأدعياتهم بأن يعود مخلص الشعب المختار إلى أرض صهيون.

فإذا ما حل عيد الفصح وانتهت فترة التوبات ، تبادل اليهود التحيـــة فيما بينهم قائلين : إلى اللقاء في أورشليم ، العام القادم ، وكـــان المتـــدينون منهم يحجون إلى بيت المقدس في القرون الوسطي ، أما أولئك الـــذين لـــم يسعدهم الحظ بهذه الزيارة ، فقد كانوا يوصون أهلهم بأن يـــضعوا تحـــت رؤوسهم في مثواهم الأبدي حفنة من تراب فلسطين[٢٧٥] .

حاول الإسلام في أول الأمر ، أن يتألف اليهود ، أو يجذبهم إليـــه ، ولكنه لم يفلح في ذلك لعنتهم في تفكيرهم ، وإغفالهم فهم روح هذه الوثبـــة العربية العظيمة ، ومع ذلك فقد كان تسامح المسلمين مع اليهـــود واضـــحًا ومستمرًا على مر العصور فأتيح للسفارازيم ، وهم اليهود المقيمين في الديار الإسلامية ، أن يعيشوا في سلامة وطمأنينة ، أكثر مما أتيح للاشكنازيم وهم اليهود المقيمين في البلاد المسيحية ، واستقام للسفارازيم الأمر بعض الشيء وانسجموا مع بيئتهم ، فظهر منهم الأدباء والحكماء ، والمقربون إلـــى ذوي

---

[٢٧٥]) هذه هي الصهيونية : (من مطبوعات وزارة التربية والتعليم) ص ١٤.

السلطان واصطبغوا بصبغة البلاد المقيمين فيها ،فلا يختلفون إلا فيما تفرضه عليهم عقيدتهم الدينية من طقوس وسلوك.

كان الذوبان الكامل في الخضم الإسلامي أمرًا لا مفر منه ولذا بقيت الحضارة في العالم نامية متفاعلة. بيد أن الظلام خيم على تلك الديار وعلى من فيها من اليهود ، فلبثوا قرونًا دون تغيير ، ليسوا بالذائبين نهائيا في المحيط الذي لم يعد قادرًا على الإذابة ، وليسوا بالمتمسكين بالعقيدة الأصلية المبنية على كونهم شعب الله المختار ، وأن العودة على أرض إسرائيل واجبهم الأكبر .

وإنما أصبح هذا الاعتقاد مجرد طقوس وتبتلات وأماني دينية ، يتسلى بها العجزة في بيوتهم ، ويستعيض بها الشباب عما يجدونه من اختلاف بسيط بينهم وبين المحيطين بهم . وهكذا فقدت العقيدة حيويتها السابقة ، وأمسى مظهرها الوحيد أفرادًا من اليهود يتحاملون على أنفسهم في شيخوختهم ليموتوا في أورشليم ، بعد أن يذرفوا أرواحهم دموعًا سخينة على حائط المبكى وأيامه الحلوة التي لن تعود.

أما (الأشكنازيم) فقد اضطرهم الاضطهاد المسيحي إلى التجمع في شرق أوروبا حيث عانوا من الضغط والإرهاق قدرًا كبيرًا ، أوجد فيهم طباعًا غريبة ، فقد أصبحوا ناقمين على مواطنيهم ، كارهين لهم خائفين منهم ، مبتعدين عنهم.

مضت الأعوام والأجيال ،وهذا التباعد النفسي بين اليهود الأشكنازيم ، والمسيحيين والأوروبيين تزداد شقته ، وتتأصل جذوره. فلما انهارت الأندلس العربية الإسلامية ، وارتدت أوروبية مسيحية ، خير يهودها

بين مصائر ثلاثة : الكثلكة أو الهجرة أو الحرق فهاجر من هاجر من هؤلاء اليهود الذين كانوا منسجمين مع محـيطهم الإســلامي ، إلـــى دول غــرب أوروبا ، حيث كانت البروتستنتية تسود تدريجيًا ، فتجنبهم شيئا من المصير السيئ الذي أصاب الأسكنازيم في شرق أوروبا.

اليهود في فلسطين في العصر العثماني :

استولى العثمانيون في عهد السلطان سليم الأول على بلاد الشام بما فيها فلسطين ، في سنة ١٥١٦ بعد هزيمة السلطان المملوكي قنصوه الغوري في موقعة مرج دابق ، وتلا ذلك وقوع العالم العربي تحت الحكم العثمـــاني وازداد تدفق اللاجئين اليهود إلى فلسطين في أعقـــاب الاضـــطهاد الـــديني ومحاكم التفتيش في إسبانيا ،وكان أغلبهم يمتاز بعلم واسع ، فشغلا أســـمي المناصب بين أبناء دينهم ، وما لبثت عشائر المغاربة منهم أن اندمجت مـــع الطوائف العربية واليهودية ، بينما ظل يهود ألمانيا وبولندا على انزوائهم لا يختلطون بالآخرين.

ذلكم هو التقسيم الطائفي الذي استمر عدة قرون في فلسطين، إذ لـــم يعد يهود بخارى وفارس واليمن إلى أرض صهيون قبل القرن التاسع عشر وتلا هؤلاء يهود وسط أوروبا وشرقها فانضموا إلى طائفة الأشكنازيم.

استمر الحكم العثماني أربعة قرون ، تميزت بعدم اكتراث الحكـــام بالمحكومين وما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة ، مما أنزل الفقر بأهل فلسطين عرب ويهود ، ودام ذلك الحال إلى أن طرد محمد علـــى الأتـــراك العثمانيين من فلسطين سنة ١٩٣٢ وحاول بعد ذلك إجراء الإصلاحات ، إلا

أن الضرائب ظلت باهظة بقدر ما كانت أبان حكم العثمانيين ، فثار عـــرب فلسطين على حكمه ، واستولوا على القدس وصعد .. وقمع محمد على ثورة العرب عام ١٨٣٧، ثم حدث زلزال مروع فقضى على نحـــو ألفـــين مـــن اليهود.

وقامت الحرب مرة أخرى بين محمد على والـــسلطان العثمـــاني ، فتدخلت الدول الأوروبية وأعيدت سوريا وفلسطين إلى الحكم العثماني بعـــد أن وعد الأتراك بإجراء بعض الإصلاحات ومعاملة جميع السكان على قدم المساواة.

ثم استقرت أحوال اليهود بعد إنشاء عدة قنصليات أوروبية فكانـــت كل واحدة منها تمنح حمايتها لرعاياها الأصليين بمقتضى الامتيازات التـــي منحها العثمانيون لبعض دول أوروبا.

اختلط العنصر الديني وفكرة ظهور المسيح الذي سيعيد اليهود ذات يوم إلى فلسطين ، بالعنصر السياسي في بعض الأحيان ،وكان أول مظاهر هذا الاختلاط مشروع وضعه (دافيد روبيني) خلال القرن السادس عشر ، وكان هذا بدعوة اليهود من العرب إلى غزو فلسطين وانتزاع أراضيها مـــن أيدي الغاصبين الغزاة بمساعدة أقطاب اليهود في أوروبا ، مستهدفين تأسيس دولة يهودية في الأراضي الفلسطينية.

ولكن هذا المشروع آثار الذعر في النفوس فمات في المهد ، وظهر فيما بعد مشروع آخر عرضه تاجر دانيماركي يدعي (أوليجر باولي) على ملك إنجلترا غليوم الثالث ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكـــان هـــذا

المشروع يقوم على أساس دنيوي لا ديني ، غير أن عاهلي إنجلترا وفرنسا أعرضا عنه[٢٧٦].

أثر الانقلاب الصناعي والثورة الفرنسية في السياسية اليهودية :

في أواخر القرن الثامن عشر بدأ الانقلاب الصناعي ، وقامت الثورة الفرنسية ويصحبهما تبدل كبير في تفكير وحياة وسياسة اليهود المقيمين في غرب أوروبا.

أشعرت الثورة الفرنسية اليهودية بالحرية وبالمساواة ، فشرعوا يخالطون الناس على خور ، ويستفيدون من حقوقهم الجديدة على وجل ، وخيل إليهم أن عذاب اليهود التائه قد انتهى .. ثم اقبلوا على العلم ، يأخذون ويعطون. على غير عاداتهم . تطور الفكر اليهودي تطورًا لم نشهده أبدًا ، منذ تحجر على أنهار بابل ، منذ أربعة عشر قرنًا فسفر التكوين لم يعد له ، مكان في عصر الفلك والرياضيات والعلوم التجريبية ، وشجرة نسب بني إسرائيل اقتلعها (داروين) بنظريته عن التطور والارتقاء ، والأساطير فضحها (فريزر) وغيره من الدارسين لنفسية الإنسان الفطري.

وهكذا بدد نور العلم الضباب الكثير الذي اكتنف الفكر اليهودي مئات الأجيال ، وساهم يهود غرب أوروبا في النهضة العلمية ، فظهر منهم العلماء والفلاسفة والأطباء والمخترعون العاملون في كل مكان. وهيأت لهم الثورتان الصناعية والفرنسية، المجال لبدء حياة جديدة ، هي حياة المواطن العادي.

---

[٢٧٦]) هذه هي الصهيونية ص ٢٩.

جاءت الثورة الفرنسية بنظريات سياسية تدعو إلى الحقوق الطبيعية للإنسان ، وأهمها الحرية والمساواة ، ولم تحاول أن تستثنى من التمتع بهذه الحقوق فردًا من الأفراد أو الجماعات. وكان اليهود في أوروبا مـــن أبـــرز الجماعات التي أفادت من هذا الجو الحر ، ومن هذه الحركة التحريريـــة ، خاصة وأن هذه النظريات السياسية قد وجدت في نابليون وفتوحاتـــه التـــي امتدت إلى جميع أنحاء أوروبا وسيلة التنفيذ الفعلي . فأمام غزوات نـــابليون سقطت جدران أحياء اليهود في كل مكان، وبالرغم من رد الفعل الذي حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فإن الرجعية لم تشملْ على وجه العموم ما ناله اليهود من حقوق في الحرية والمساواة. إذ خرج اليهود من الأحياء التي اختاروا العزلة فيها أول الأمر ثم فرض عليهم الإقامة فيها بعد مـــا احتـــدم العداء بينهم وبين المسيحيين ، وخرجوا كـــذلك مـــن أزيـــائهم التقليديـــة ، فأصبحوا يلبسون اللباس الأوروبي العادي ويلبسون معـــه لبـــاس التحـــرر الظاهري في العقائد الدينية ، وحاول بعضهم أن يتنصر التماسًا للمـــشاركة التامة في حياة الأوروبيين ، ومثال ذلك (نزرائيلي) الذي أصرت أمه على تعميده وأن تغسل بماء التعميد كل ما يحمله ابنهـــا مـــن مظـــاهر التميـــز الطائفي[٢٧٧].

نابليون واليهود :

كان نابليون من الخبراء الذين يحذقون صناعة الحكم ، وكان علـــى علم بديهي بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ في الرأي العام ، ولـــذا اهـــتم بعوامل النفوذ الصهيوني في البلاد الفرنسية وفي البلاد التي يتطلـــع إليهـــا

[٢٧٧] دكتور عبد المعز نصر : الصهيونية ص ٥٦.

بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية. كان في سنة ١٨٠٦ سـيد القـارة الأوروبية غير مدافع ، هزم النمسا وروسيا وتغلب على وليام بت في ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه في تلك السنة كان يرفع يديه دهسا ويسأل من حوله قائلا : (بأية معجزة أصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مترهنة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفا ؟).

فكر نابليون في الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق وساوم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة ، فهم يعودون إلـى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهـو يـستفيد مـن أمـوالهم ورعايتهم في تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ الـسياسي أو المـالي الـذي يعترضها ويعوق حركاتها.

لما اتجهت أوروبا كلها إلى طرق المواصلات بين الشرق والغـرب خلال الدولة العثمانية ، أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة في هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية في ٢٠ أبريل سنة ١٨٩٩ إعلانـا دعا فيه يهود أفريقية وآسيا إلى موافـاة جيـشه بمـصر ، ليـدخلوا معـه إلى أورشليم ، وراجت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية إلـى اغتنـام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم الحملة التجارية بين الوجه البحـري في مصر ، وعكا والبحر الميت وشواطئ البحر الأحمر.

وواضح من خطة نابليون أنه لم يكن يريد المعونة العـسكرية مـن الصهيونيين ، وأن الفرق المزعومة التي قال أنها تهدد مدينة حلب لم يكـن لها وجود ، وإنما أراد بها معونة الأيدي الخفية في مراكز السياسة العليا كما أراد ضمان المال إذا ضنت به خزانة الدولة[٢٧٨].

---

[٢٧٨]) العقاد : الصهيونية ص ٧٠.

وعد نابليون اليهود أن يعيد إليهم مجدهم الضائع ، ويرد لهم حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين ولكن نابليون فك الحصار عن عكا وعـاد إلـى بلاده قبل أن يصل نداؤه إلى اليهود.

ثم دخلت قضية فلسطين بعد جلاء الفرنسيين عن مصر في أوائـل القرن التاسع عشر (سنة ١٨٠١) في دور جديد ، لن نتعرض له في هـذا الكتاب ، إذ هو خارج عن دراستنا ، وقد رأينا الاقتصار على دارسة أطماع اليهود في فلسطين في نهاية التاريخ الإسلامي ، وبداية التاريخ الحـديث ، وسنقتصر في الفصل القادم ، وهو الأخير ، على دراسة أحـوال العـرب والمسلمين السيئة في فلسطين المحتلة التي اغتصبتها إسرائيل الـصهيونية ، وما ترتب على قيام هذه الدويلة المزعومة من تشرد أهالي فلـسطين مـن العرب المسلمين ، مما أدى إلى ظهور مشكلة (العائدين) أو (اللاجئين).

* * * * * *